

الصوفية والموسيقى

للسيد محمد الغنيمي التفتازانى

لازید أن تتوسع فی هذه العجالة فنسرد تاریخ الموسيقى من عهد قدماء
اليونان الذين يعتبرهم المؤرخون الطبقة الأولى من وضاع قواعدها ومؤسسی
أصولها ، ولازید كذلك أن نسرد على القاریء الكريم أوجه الخلاف بین
المؤرخین فی حقيقة تاریخ الموسيقى ، فقد يطول بنا المقام دون أن نوفی البحث
حقه من جميع نواحيه

ولكن الذى نريده أن نمر بمبحثنا على أنظار القراء ، قراء المعرفة ، الكرام
كما يمر شريط السينما ، بأن نبرز لهم صورة من صور ماضى الموسيقى الشرقى
ومعلوم أن الموسيقى حلت ضيفا مرعى الخاطر مكرم الجانب على
الصوفية والمتصوفة فى تكاياهم وزواياهم زهاء الخمسة قرون ، فقد حاربا بعض
جامدى الفقهاء منذ غلبت الروح الفقهية المحضة على رأى العام الإسلامى ،
إلى أن ظهر بین الفقهاء من يقول بحل سماع الأغانى ، وكانت باكورة هذه الحركة
ظهور رسالة العالم الفقيه المحدث الشيخ عبد الغنى النابلسى أحد فقهاء القرن
الحادى عشر الهجرى

مرت الموسيقى فى العهد العربى الإسلامى بأدوار ازدهرت فى مدارجها
واكتملت نسبيا حتى كانت فنا طريفا شغف به الخلفاء ومن إليهم ، وحيثما
ازدهر عهد من عهود المسلمين فى أى قطر من أقطاره ، أحسست بالموسيقى
تملك الغرة من جبين ذلك العهد ، ورأيتها فى وضوح سبيل من أسباب النهضة
وعاملا من عوامل الازدهار ، ثم هى مظهر من مظاهر الترف والنعيم الذى
كان يشغل أهل ذلك العصر

وأوفى الصفحات تبين هذه الحقائق ، ما أورده صاحب الأغاني وغيره من أشباهه الذين دونوا آثار السلف لميراث الخاف

وبعد فلا أريد أن أفصل هنا ما يجب أن يحمل تعريفاً بالفن وأبوابه وألوانه ، ولكنني قلت لك من قبل إن عنايتي بما سأقضه عليك ، لا تعدو الصورة السينمائية لصفحة من صفحات ماضى هذا الفن الجميل

تقول كتب الفن إن الموسيقى اسم لعلم من العلوم الرياضية يبحث فيه عن النغمات والمقامات وكيف تؤدي مهمتها من إثارة الشجن أو ابتعاث الحزن أو ابتعاث الطرب والسرور ، والصوفية بالطبع أقرب الناس إلى هذا التكيف ، فهم في مواقف خشوعهم يبحثون عما يثير الشجن كوسيلة لاستغراق مشاعرهم ، ثم هم في خلواتهم يجهدون أن يصل الحزن العميق إلى قرارة نفوسهم ، ثم هم في جلواتهم ينشدون ما يبعث السرور لجلاء صداً هذه القلوب المكلومة ، ولا نزاع في أن الموسيقى تحرك الصم الصلاد ، فهي بلا شك معينة العشاق وجامعة شتات القلوب الرقاق

وقد كتب بعض مشاهير الصوفية في الموسيقى وفنونها ، بل لقد اتخذت في بعض أدوارها وعلى الخصوص في تركيا وإيران شكلاً صوفياً محضاً ؛ حتى إنك لتجد مشاهير مؤلفي الفن ونوابغها هنا لك من رجال الطريقة المولوية التي لها المقام الأول بين الطرق الصوفية التي تعتمد على الموسيقى في إدارة حضراتها ومجالس الذكر فيها

وهذه هي الطريقة الصوفية الوحيدة التي تستجيز العزف بالآلات الموسيقية على اختلاف أنواعها أثناء مجلس الذكر

أما بقية الطرق الصوفية فأنها تكتفي بأنشاد المنشدين من ذوى الأصوات المطربة العارفين بأصول التوقيع والأنشاد والملمين بفن النغمات

ومن أظرف ما كتبه صاحب سفينة الملك ونفيسة الفلك المرحوم السيد محمد بن اسماعيل بن عمر شهاب الدين عن مدارج السماع قال رحمه الله :

إن الطفل يصغى سمعه إلى ماتغنيه به أمه ، ويلغى العويل والصياح ، وما ذلك إلا لأنه قد ذهب عنه ما يغمه بالطرب والارتياح مع كونه غير مميز وليس من أهل ذلك الحيز ، أما الكامل فأذا سمع طرب ، ومتى طرب طاب ومتى طاب غاب ، وإذا غاب حضر ، ومتى حضر نظر ، وإذا نظر حصل ، ومتى حصل وصل

وقال السيد محمد البكرى رحمه الله :

زمزموا باسمي على العود وانقروا للبطط طارة
وعلى منكر قولى فيه شنوا ألف غارة

وقال بعض المتصوفة :

من ذاق طعم شراب القوم يدرىه ومن دراه غدا بالروح يشريه
وذو الصبابة لا يسقى على عدد ال أنفاس منه فليس الشرب يرويه
يروي ويظمى ولا ينفك شاربه يصحو ويسكر والمحبوب يسقيه
الرى يظمئه والصحو يسكره والوجد يظهره طورا ويخفيه
يدوله السر من أفاق وجهته وليس إلا له منه تبديه

بهذه الروح الفتانة استهدف المتصوفة حيناً إلى حملات الفقهاء وأشياهم زماناً طويلاً ، وكلما زادهم أولئك من خوف التكبر ازداد هؤلاء مضياً مع الوجدان والضمير ، فأذا بثروة الموسيقى الشرقية كلها تستودع حصون تكايا المتصوفة وزواياهم ، وإذا بهذه الثروة تخرج من هذه الحصون مصقولة مجلوة بصورتها الحاضرة ، تلك الصورة التى يكفى أن تعرض فيما أخرجه للناس جماعة نادى الموسيقى الشرقى بآرك الله فيهم ، إذ لو لا هذه الحركة المباركة حركة تأسيس النادى العظيم ، للبثنا فى مصر أسرى عزف الغواة ومناظر الهواة ، وللبث مجموع ميراثنا الضخم من الموسيقى الشرقية مهددا لم تصل إليه يد الجامع المنسق

أما الآن فأنتى أحمد الله سبحانه وتعالى حيث أصبح للموسيقى الشرقية

في مصر بمجمع وناد ومعهد برعاية جلالة مولانا الملك حفظه الله ، توافرت على إدارة هذه المجموعة المباركة قوى فنية في نفوس كريمة وفقها الله للعمل على حفظ هذه الثروة الضخمة وإحياء موات هذا الميراث العظيم ، فبارك الله في همم جميع القائمين بالعمل في معهد الموسيقى الشرقي الفخم وجزاهم عن هذا الفن وأهله وعشاقه أحسن الجزاء

ونعود الآن إلى ما يعنى به الصوفية في مصر من فنون الموسيقى ، فنقول إنهم درجوا منذ القديم على أن يبدأوا مجالس الذكر (لا إله إلا الله) وتعرف عندهم بالأرضية ويأخذ (الرسيم) الذي هو رئيس المجلس في التدرج بالذاكرين أثناءها من الراس (الرصد) إلى الدوكة إلى السيكا إلى الجهركا (الجركا) إلى الحجاز ثم الرهاوى فالكردي فالبياتي فالصبا ، وهنا تبدو مقدرة الرئيس في نقل الذاكرين من نعمة إلى نعمة ، كما تبدو مقدرة المنشدين في متابعتهم للأغنام والانشاد منها

والغالب في الانشاد على الأرضية أن يكون من كلام الصوفية كقولهم
إلهي توسلنا بحمد محمد نبيك وهو السيد المتواضع
أنلنا مع الأجاب رؤيتك التي إليها قلوب الأولياء تسارع
إلى آخر القصيدة

ثم ينفرد رئيس المنشدين بعد الوصول إلى نعمة الرصد أو إلى النعمة التي ينتهي عندها إنشاد القصيدة بالاستغاثة (أغثنا أدركنا يا رسول الله) ثم يقول الموالم من نفس النعمة ، فالآيات التي سينشدها عند قيام المجلس من نفس النعمة أيضا ، ينشدها على الأرضية مقطعة ، وعند قيام الذاكرين يكرر الآيات بالطريقة المألوفة ، ثم ينفرد بعد ذلك بالمقطعات والقصائد والرقائق وما إليها من كلام الصوفية

وقد يستريح بعضهم أن ينشد الأدوار الموسيقية بمذاهبها وردودها المعروفة على مجلس الذكر ، ولكن هذه طريقة قاهرة محضة ، ويكاد لا يتبعها إلا رجال

الطريقة الليثية أصحاب الفضل على هذا الفن وأساتذة مبرزيه وحملة ألوته في القاهرة منذ مئتي عام

ولا يدهشك أن تعلم أن جميع الذين اشتهروا في عالم الموسيقى بالقاهرة تخرجوا على مجالس الذكر أولا ثم اتخذوا الغناء بعد ذلك احترافا، وإنما وصلوا إلى قمة الشهرة في مجالس الذكر الصوفية أولا

ونستطيع أن نذكر من هؤلاء :-

المرحوم عبده الحامولي المرحوم محمد عثمان

المرحوم الشيخ خليل محرم المرحوم الشيخ المسلوب

المرحوم الشيخ سلامه حجازي المرحوم الشيخ سيد درويش

المرحوم الشيخ يوسف المنيلاوي

ومن كبار المنشدين الذين لم يحترفوا الغناء على الآلات بصورة دائمة المرحوم الشيخ الشاشموني والمرحوم الشيخ الحويجي والمرحوم الشيخ عبدالله الأودي وقد قصرت الذاكرة عن الوصول إلى أسماء الطبقة السابقة لهذه الطبقة .

هذه صورة موجزة مصغرة لما كانت عليه الموسيقى الشرقية عند

الصوفية إبان قرن من القرون الماضية

ولقد بلغ من افتتان الصوفية بالموسيقى أن أحدهم نظم أرجوزة ضمنها

كل ما يتعلق بالموسيقى . أذكر منها مايلي

الحمد لله ولي النعم من خصنا منها بعلم النعم

الرصد أصل الأصل يا من أصلا فروع البزك ثم الزنكلا

أما العراقي خص بالفرعين منه الرهاوى مع الحسيني

والزرفكند مابه تشكيك فروع المايا وبوسليك

والأصفهاني رابعا وما حوى فروع العشاق حقا والنوى

وكان المشتغلون منهم بالفن يحفظون هذه الأرجوزة عن ظهر قلب كما

يحفظون أوراد مشايخهم وأحزابهم

أما أناشيدهم وأما موشحاتهم وقصائدهم فمبعثرة في بعض الكتب المطبوعة
والخطية ، فعسى أن يوفق الله من يضع للموسيقى عند الصوفية سفرا كاملا
يحوى مفاخرهم وفنونهم وأقوالهم طوالة عصور ضيافة هذا الفن الجميل عليهم
ومن أظرف ما أحفظه عن مشايخي رواية وتلجينا وأداء موشح رهاوى
ضربه مصمودى

ماس واتنى ثملا يختال تحت البرد
أخجل القنا ميلا بلين ذاك القند
كالغصن مالا يشبه الغزالا قدأ واعتدالا

دور

لحظه بنأ فعلا فعل الحسام الهندى
فهو إن رنا قتلا بنصل ذاك الحد
قد سطا وصالا يرشق النبلا كم دم أسالا

دور

يا كل المنى لم لا ترعى ذمام الود
صرت فى الضنى مثلا وذقت كل الجهد
أنعم قال لالا تطلب المحالا ارقب الهلالا

دور

قلت من جنى أملا من ورد ذاك الحد
عنده الهنا كملا ونال جل القصد
رقلى وقال من يهوى الجمالا لا يحمل النكالا

دور المديح

صلى ذو الحنان على حاوى لواء الحمد
من منه لنا وصلا كل الهدى والرشد
دائما ووالى صحبه وآلا أحرزوا الكمالا

هذه صفحات من صفحات الماضى القريب ، أسأل الله أن تكون مرآة
يتعرف فيها من يحاولون النيل من كفاية فنون الموسيقى الشرقية وأصولها
وفروعها وأنغامها لأداء كل حاجة تعرض للنهوض بهذا الفن الجميل نهضة تتابع
نهضات العصر الحاضر من جميع النواحي

أما الصوفية فهم كما كانوا فى كل آن ومكان قانعون بميراثهم العظيم من
هذا الفن الجميل ، ولكنهم يودون لو أتيح لهم التجديد فى بعض جوانبه
بما لا يهدم أصلا ولا يقطع فرعاً ولا يمجح السمع ولا يأباه الذوق ولا تنكره
آداب الإسلام ؟

محمد الغنيمى التفتازانى

الحق بمصر

اسم _____ تتفتاء عام

موجه لحضرات القراء والقارئات

- (١) ماهى الأسباب الحقيقية لأزمة الزواج ؟ وماهى الطرق التى تعالج بها ؟
 - (٢) ماهو الزى الذى تفضله ؟ ولماذا ؟ وإذا كنت من القائلين بتوحيده
فأى نوع منه تختار ؟ وإذا كنت ترى إدخال تعديل عليه فما هو ذلك التعديل ؟
 - (٣) ماهى ملاحظاتك على هذه المجلة (المعرفة) وماهى الموضوعات التى
ترى فائدة من طرقها ؟ وماذا يروقك منها على وجه أخص ؟
- توجه مجلة المعرفة إلى حضرات قرائها وقارئاتها هذه الأسئلة الثلاثة ،
وللجميع الحق فى الرد على بعض أو كل منها ، وستنشر الإدارة ما تراه نافعا
من الردود التى ترد عليها .

الإدارة